



Assis.Lect. Hamza
Shihab Ali

Wasit Education
Directorate - Open
Educational College

Email:
hmzhaljyfy510@gmail.com

Keywords:

Sufism , Iraqi society ,
the Abbasid era



Article info

Article history:

Received 1.NOV.2023

Published 25.NOV.2023



ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: <https://eduj.uowasit.edu.iq>



The impact of Sufism on Iraqi society in the Abbasid era

A B S T R A C T

The Abbasid era is considered an era that linked ancient science with the medieval renaissance. It preserved the heritage and literature of art. This study is an attempt to identify the impact of Sufism on Iraqi society in the Abbasid era, and to demonstrate the influence and religious motivation for Sufism and to know its causes on Iraqi society in the Abbasid era.

The Sufism movement spread in the Islamic world in the third century AH as individual tendencies calling for asceticism and intense worship. Then it developed until it became an Islamic phenomenon and an important starting point for Islam. Since its inception, it has given birth to personalities who have influenced societies and left clear imprints on the religious heritage, after they spread to the east of the earth. And its West.

Sufism and isolationism appeared in the Umayyad era and grew and developed in the first Abbasid era. They did not find opposition from the Umayyads, and when the Abbasid state came and the torrent of atheism and heresy emerged from movements and currents that appeared in this era, they called for permissibility, permissibility, and the disclosure of forbidden matters in the values and principles of Islam and the introduction of heresies. And the disclosure of intellectual disputes that had long been built on foundations, beliefs and philosophies with ancient visions, which they had been influenced by and worshiped. This made the Abbasid caliphs in their first era find in the Mu'tazilites a drawn sword over such activities of Islam and the Arab Sultan. On the basis of that, they launched a ferocious war which they led directly and indirectly, so they unleashed On their mind.

The phenomenon of asceticism spread in Abbasid society in light of the spread of a trend that contradicts it, which is immorality and entertainment, as extremism and extremism in a certain aspect are matched by extremism and extremism in a completely opposite aspect

© 2022 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: <https://doi.org/10.31185/eduj.Vol53.Iss2.3762>

اثر التصوف على المجتمع العراقي في العصر العباسي (١٣٢-١٣٦٠هـ/٧٥٠-١٢٥٨م)

م.م. حمزة شهاب علي

مديرية تربية واسط / الكلية التربوية المفتوحة

الملخص :

يعتبر العصر العباسي عصر ربط بين علم الاقدمين ونهضة القرون الوسطى ، حافظ على تراث وادب الفن، تأتي هذه الدراسة محاولة للتعرف على أثر التصوف على المجتمع العراقي في العصر العباسي ، وليبين التأثير والوازع الديني للتصوف ومعرفة اسبابه على المجتمع العراقي في العصر العباسي.

فقد انتشرت حركة التصوف في العالم الاسلامي في القرن الثالث الهجري كنزعات فردية تدعو الى الزهد وشدة العبادة، ثم تطورت حتى صارت ظاهرة اسلامية ومنطقاً مهماً من منطلقات الاسلام ، حتى انجبت أنجبت شخصيات اثرت في المجتمعات وتركت بصمات واضحة على التراث الديني، بعدما انتشروا في مشارق الارض ومغاربها.

ولقد ظهر التصوف والاعتزال في العصر الأموي ونما وتطور في العصر العباسي الأول فلم يجدوا في الأمويين معارضة، ولما جاءت الدولة العباسية وكان سيل الإلحاد والزندقة، قد ظهر من حركات وتيارات ظهرت في هذا العصر فهي تدعو الى الحلول والإباحة وإفشاء المحرمات في قيم ومبادئ الإسلام وإدخال البدع وإفشاء النزاعات الفكرية التي طالما بنيت على اسس وعقائد وفلسفات ذات رؤى قديمة فكانوا قد تأثروا بها وعبدوها ، وهذا جعل الخلفاء العباسيون في عصرهم الأول أن يجدوا في المعتزلة سيفاً مسلواً على هكذا أنشطة للإسلام وللسلطان العربي .

وقد انتشرت ظاهرة الزهد في المجتمع العباسي في ظل انتشار تيار مناقض له، هو المجون واللهو، إذ أن الغلو والتطرف في جانب معين يقابله غلو وتطرف في جانب يعاكسه تماماً.

الكلمات المفتاحية : تصوف ، المجتمع العراقي ، العصر العباسي

التمهيد:

مشكلة البحث وتساؤلاته :

كانت نظرة المجتمع الإسلامي للتصوف نظرة ريبية وشك ، بسبب ما أشيع عنه أنه مبتدع ووافد على الإسلام ؛ لذلك تعرض للنقد والمحاربة من قبل الكثيرين ومن خلال ما تقدم تبرز الأسئلة التالية :

١. ما المقصود بالتصوف الإسلامي ؟
٢. كيف نشأ التصوف الإسلامي في العصر العباسي ؟
٣. ما أثر التصوف في المجتمع العراقي في العصر العباسي؟
٤. أسباب ظهور التصوف (العوامل والدوافع)؟

أهمية البحث:

ترجع أهمية البحث في أثر التصوف على المجتمع العراقي إلى توضيح مفهوم التصوف وتوضيح نشأته وتطوره واثاره على المجتمع العراقي، كما ترجع أهمية البحث إلى رغبة الباحث في تبيان وأهمية وأثر التصوف في العصر العباسي في العراق .

أهداف البحث

١. يهدف البحث إلى توضيح مفهوم التصوف الإسلامي.
٢. تناول نشأة التصوف ومراحل تطوره .
٣. يسلط البحث الضوء على اثر التصوف في المجتمع العراقي.

منهجية البحث

اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي مع الاستعانة بما يخدم جزئياته من مناهج اخرى ، فكلنا نعلم لا توجد فواصل دقيقة بين منهج وآخر ، فقد تجتمع عدة مناهج في بحث قضية واحدة ، وهذه ضرورة أكدها المنهج الحديث.

وتقوم عناصر هذا المنهج على ما يلي :

١. عرض الأفكار وتحليلها ومناقشتها وتحليل محتواها ، وربما مقارنتها مع غيرها في ذات الفكرة.
٢. إبراز أهم القضايا المتصلة بالفكرة موضوع البحث أثناء تناولها.
٣. استخلاص النتائج ومحاولة تقييمها مع بيان أوجه التصور في تلك النتائج إذا وجد إلى ذلك مدخل.

المبحث الاول

المفهوم اللغوي والاصطلاحي للتصوف

أولاً: المفهوم اللغوي للتصوف

تعددت الآراء واختلفت وجهات نظر الباحثين ومؤرخي التصوف في الأصل الاشتقاقي اللغوي لمفهوم التصوف ، ولقد ورد مفهوم التصوف في معاجم اللغة تحت مادة (صوف) على عدة معان منها إطلاق كلمة (صوف) على الصوف المعروف من شعر الحيوانات ، قال الله تعالى: (وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ)، (النحل : ٨٠) .
والطوسي(ت٤٦٠هـ) أيضاً يؤكد ذلك " كذلك الصوفية عندي نسبوا إلى ظاهر اللباس ، ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال التي هم بها متمرسون ؛ لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء (عليهم السلام) ، فلبس الصوف خشن، وكانوا يؤثرون لبسه دليلاً على التقشف والخشونة(الطوسي، ١٩٦٠ : ٤١).

وقيل إن الصوفية ينتسبون إلى الصفاء ، وأنهم سمو صوفية لصفاء أسرارهم وشرح صدورهم وضيء قلوبهم ، وهذا يرجع إلى حال الصوفية ، وليس إلى الاشتقاق اللغوي، ويرى القشيري (ت٤٦٥هـ) أن هذا غير صحيح؛ لأن نسبة الصفاء هي صفائي ، وهذا رأي الكلاباذي (ت٣٨٠هـ) أيضاً فالصوفية ينتسبون إلى الصفاء ، وأنهم سمو صوفية لصفاء أسرارهم وشرح صدورهم وضيء قلوبهم ، صفاء القلب والروح والخلق ، فالصوفية أكثر الناس صفاء.(القشيري، ٢٠٠٦ : ١٢٧)

وأنها مشتقة من الصف الأول ، لأن الصوفية يقفون فيه أمام الله (جل وعلا) لارتفاع همومهم إليه وتقربهم إليه ، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه ، فهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث حضورهم مع الله تعالى وتسابقهم في سائر الطاعات ، وتطلق - أيضاً - على نبتة زغباء قصيرة فهذه النبتة قصيرة لا تحتاج إلى رعاية وعناية، كذلك الصوفية يعيشون حالة التقشف والزهد في الأكل والشرب الى سوفي اليونانية ومعناها الحكمة ، والقائلون بذلك حجتهم إن القوم كانوا طالبين للحكمة ، حريصين عليها ، فأطلقت عليهم الكلمة وعربت أو حرفت صوفية وصوفي.(الكلاباذي، ١٩٨٠ : ٢٨)

ويرى القشيري أن لفظ الصوفية لم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية ولا في اللغة العربية " وليس يشهد لهذا الاسم (تصوف) من حيث اللغة قياس ولا اشتقاق ، والأظهر فيه إنه كاللقب ، فأما قول من قال إنه من الصوف وتصوف إذا لبس

(الصوف) ... فذلك وجه ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف ، ومن قال إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) ، واهل الصفة " هم فقراء المهاجرين وكانوا نحواً من اربعمائة رجل ، وذلك انهم كانوا يقدمون فقراء على رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) ومالهم اهل ولا مال فبنيت لهم صفة في مؤخرة مسجد الرسول ، فقيل لهم (أهل الصفة) " (القرطبي، ج ٣/ ص ٣٤٠) ، فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي ، ومن قال من الصفاء فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة ، وقول من قال إنه مشتق من الصف فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث الحاضرة من الله تعالى ، فالمعنى صحيح ، ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة إلى الصف ، ثم إن هذه الطائفة أشهر من أن تحتاج في تعيينهم إلى قياس لفظ واستحقاق واشتقاق " (الكلاباذي، ٢٨) ، فالقشيري ينفي ورودها في القرآن والسنة واللغة العربية ، وإنها لقب وليس اسم ، ومن هذه التعريفات وغيرها يتضح لنا الاختلاف في التعريف اللغوي لمفهوم التصوف .

ثانياً: المفهوم الاصطلاحي للتصوف

مفهوم التصوف من المفاهيم التي لم يتفق على تعريفها لغة واصطلاحاً ، فمن الصعب أن نحصر تعريفاً جامعاً مانعاً للتصوف ؛ لأن التصوف مر بالعديد من الأدوار والمراحل والتغيرات ، فلا بد أن يختلف مفهوم التصوف من عصر لآخر ، إلى أن التصوف تجربة روحية فردية ، وهذه التجربة تختلف من شخص إلى آخر ، فيختلف معنى التصوف من صوفي إلى آخر باختلاف تجاربه " لقد اجتهد الصوفيون في تقديم التعريف الجامع المانع ، وتفرقوا أو تنوعوا أكثر ما نتقوا أو اتفقوا ، وبثوها مبعثرة ومعقدة ، كما قدموا تعريفات بسيطة أو مبسطة مكثفة " (الفيروزآبادي ، ٢٠٠٥ : ٨٢٩) . وسوف نتعرض لبعض من هذه التعريفات :

يعرفه الجرجاني (ت ٣٩٢هـ) بأنه : " هو علم القلوب الذي يبحث في أحوال النفس الباطنة ، ويسعى إلى تصفية القلوب والطهر والتجرد ، ويؤدي إلى الاتصال بالعالم العلوي " (عرفان ، ٢٠٠٧ : ١٠٨)

ويعرفه حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) بأنه : " هو طرح النفس في العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، فإن تصفية القلب عن مرافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية ، وإخماد الصفات البشرية ومجانبة الدواعي النقائمية ومنازلة الصفات الروحانية ، والتعلق بالعلوم الحقيقية ، وإتباع رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) في الشريعة " فهو تزكية النفوس وصفاء القلوب وإصلاح الأخلاق (القشيري، ٢٠٠٦ : ١٢٦) .

وعرفه ابن سينا (ت ٤٢٨هـ) : "هو ذلك الإنسان المنصرف بفكره إلى قدس الجبروت ، مستديماً الشروق نور الحق في سره " (القشيري ، ٢٠٠٦ : ١١٥)

ويعرفه ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) بأنه : "العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة". (ابن خلدون، ١٩٣٨ : ٤٦) ، فهو عبادة وسلوك وإعراض عن الدنيا وملذاتها ، والابتعاد عن الفواحش وكل ما يخالف أوامر الله ، وتوثيق الصلة به .

وعند الجنيد (ت ٢٩٧هـ) : " لحوق السر بالحق ، ولا ينال ذلك إلا بغاء النفس عن الأسباب لقوة الروح والقيام مع الحق " (الغزالي، ١٩٢٤ ، ١٤٣)

وقيل _ أيضاً _ في تعريف التصوف " التصوف خلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف ... ومن شروط المنعوت في التصوف أن يكون حكيماً ذا حكمة ، وإن لم يكن فلا حظ له في هذا اللقب " (ابن سينا ، ١٩٤٨ : ١٦٨)

ويعرف الطوسي الصوفية في اللمع بأنهم : " هم العلماء بالله وأحكام الله العاملون بما علمهم الله تعالى ، المتحققون بما استعملهم الله (عز وجل) ، الواجدون بما تحققوا ، الفانون بما وجدوا ، لأن كل واحد قد فنى بما وجد " (الطوسي، ١٩٦٠ ، ص ٤)

المبحث الثاني

أولاً: نشأة التصوف

يعتبر التصوف الإسلامي امتداداً لحركة الزهد التي نشأت في القرنين الأول و الثاني الهجريين ، فالزهد إسلامي النشأة، والقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة حثا على الزهد قال الله تعالى " زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالتَّبَنِينَ وَالتَّقَاتِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالتَّحِيلِ الْمُسَوِّمَةِ وَالتَّانِعِ وَالتَّحْرِيثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ " (ال عمران ، ١٤) ، فهذه الآية الكريمة تحذر المسلمين من متع الحياة وملذاتها كالنساء والأبناء والذهب والفضة ؛ لأنها تبعد العبد عن إخلاص العبادة لله ، فما عند الله أبقي والحياة زائفة. (الكلاباذي ، ١٩٨٠ : ٩١)
ولنا في رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) أسوة حسنة ، فقد كان زاهداً في أكله وشربه ولباسه ، وكان لباسه الصوف وهو لباس الفقراء والمساكين .

يرى بعضهم أن مفهوم التصوف استحدث بعد عهد الرسول والصحابة ، فابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) يؤكد على أن لفظ الصوفية استحدث ولم يكن معروفاً في عهد الرسول والصحابة " كانت النسبة في عهد رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) إلى الإيمان والإسلام فيقال: مسلم ومؤمن ، تم حدث اسم زاهد وعابد ، تم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد فتخلوا عن الدنيا، وانقطعوا إلى العبادة ، واتخذوا في ذلك طريقة تفرّدوا بها ، وأخلاقاً تخلقوا بها ... وهذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين ، ولما أظهر أوائلهم تكلموا فيه ، وعبروا عنه صفته بعبارات كثيرة .. " (الغراب ، ١٩٩٣ : ٣٦١)

ويرد الطوسي على من قال إن الصوفية لفظ مستحدث " إن سأل سائل فقال : لم نسمع بذكر الصوفية في أصحاب رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) ورضي الله عنهم أجمعين ، ولا فيمن كان بعدهم ، ولا تعرف إلا العباد والزهاد والسائقين والفقراء ، وما قيل لأحد من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم): صوفي ، فنقول وبالله التوفيق : الصحبة مع رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) لها حرمة ، وتخصيص من شمله ذلك ، فلا يجوز أن يعلق عليه اسم على أنه أشرف من الصحبة ، وذلك لشرف رسول (الله صلى الله عليه واله وسلم) وحرمة ... وأما قول القائل : إنه اسم محدث أحدثه البيهقيون فمحال ؛ لأنه في وقت الحسن البصري (ت١١٠هـ) كان يعرف هذا الاسم وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم). (الطوسي : للمع ، ص٢٧)

ففي الصدر الأول من الإسلام لم تكن هناك حاجة إلى التصوف ؛ نظراً لقربهم من الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) واتصالهم به ، فلفظ الصحابة أشرف من أي لفظ آخر ، شرف صحبة رسول الله ، ولا يعلو عليه شرف ، فكان يطلق عليهم لفظ الصحابة والتابعين وأهل البيعة والمؤمنين والمسلمين ، فهم أهل تقوى وورع وعبادة ومجاهدة ، فهم صوفيون فعلاً ، وإن لم يطلق عليهم متصوفة ، فهم لم يكتفوا بفروض الإسلام ، واقترنت لديهم بالتذوق والوجدان ، وابتعدوا عن المحرمات والمكروهات ، حتى استتارت قلوبهم وفاضت بالإسرار الريانية بصائرهم. (الرندي ، ١٩٣٩ ، ١١٣)

وقد ظهرت مجموعة من الزهاد الأوائل منهم الحسن البصري المتوفى (١١٠ هـ) ، ومالك بن دينار المتوفى (١٣١ هـ) ، وإبراهيم بن الأدهم المتوفى (١٦١ هـ) ، وغيرهم كمثال الزهد الممتد من عهد الصحابة (رضي الله عنهم) " وكان الحسن البصري أشهر هؤلاء الزهاد في العصر العباسي الأول ، وظهرت من بينهم طائفة عرفوا ب (البكائين) لفرط بكائهم تحسراً على ما اقترفوه من الذنوب، ولو كانت يسيرة، طمعاً في نيل عفو الله ورجاء لغفرانه، فكانت السمات المميزة لتلك الحركة الزهدية العظيمة المبالغة في التعبّد تقريباً إلى الله بالنوافل والذكر وشدة العناية بالناحية الأخلاقية ، ومن أهم مظاهرها التوكل باعتباره أساساً من أسس الأخلاق الصوفية " (السهروردي ، ١٩٨٠ : ٥٤)

ثانياً: التصوف في العصر العباسي في العراق

ظهر التصوف والاعتزال في العصر الأموي ونما وتطور في العصر العباسي الأول فلم يجدوا في الأمويين معارضة، ولما جاءت الدولة العباسية وكان سيل الإلحاد والزندقة، قد ظهر من حركات وتيارات ظهرت في هذا العصر فهي تدعو الى الانحلال الخلقي والإباحة وإفشاء المحرمات في قيم ومبادئ الإسلام وإدخال البدع وإفشاء النزاعات الفكرية التي طالما بنيت على اسس وعقائد وفلسفات ذات رؤى قديمة كانوا قد تأثروا بها وعبدوها. (جواد ، ٢٠١٠ : ١٣٩) وهذا مما جعل الخلفاء العباسيون في عصرهم الأول أن يجدوا في المعتزلة سيفاً مسلولاً على هكذا أنشطة للإسلام وللسلطان العربي وعلى أساس ذلك شنوا حرباً شعواء قادوها بالشكل المباشر وغير المباشر ، وفرقوا بينهم وبين ما كان قد شاع ، وقرّبوهم وكان المأمون كأسلافه يعقد المناظرات بين الفريقين لينتقوا لرأي واحد، لكنه سقط سقطه ما كان لمثله إن يقع فيها، وهو انه أراد أن يحمل الفقراء والمحدثين على رأي المعتزلة في القرآن في قوة السلطان ، وما كانت قوة الحكم لنصرة الآراء، وحمل الناس على غير ما يعتقدون، وإن كان من الحرام الإكراه في الدين فكيف يحل حمل الناس عقيدة ليس في مخالفتها كفراً ، فقد حاول أن يحمل الفقهاء على القول في خلق القرآن (متر ادم ، ١٩٤٠ : ٣٦)، فأجابهم بعضهم الى رغبته تقية ورهبا لا إيمانا واعتقادا، وتحمل آخرون الإرهاق ، والسجن الطويل ، ولم يقولوا غير ما يعتقدون واستمرت تلك الفتنة طول خلافة المعتصم والوائق ، ولما جاء المتوكل رفع هذه المحنة وترك الأمور تأخذ سيرها، والآراء تجري في مجاريها ، وللناس فيها ما يختارون ، فكان لخلفاء بني العباس من شايح المعتزلة وناصرهم وقامت بينهم صلة حميمة ، حتى نعتوا من خلالها إنهم اصل البلاء وخطاء الخلفاء والأمراء ، صدروا عن رأيهم ونفذوا بتدبيرهم ، وبررها الجاحظ ، (ت ٢٥٥ هـ)، بقوله : (وبعد ونحن لم نكفر إلا من أوسعناه حجة، ولم نمتحن إلا أهل التهمة، وليس بالكشف المتهم من التجسس، ولا امتحان الظنيين من هتك الأستار، ولو كان كل كشف هتكا وكل امتحان تجسساً،) لكان القاضي اهتك الناس لستر، واشد الناس تتبعاً لعورة). (الجاحظ ، ١٤٣٦ : ٤٤)

المبحث الثالث

أولاً: مراحل التصوف وتطوره

لا شك أن التصوف الإسلامي قد مر بعدة أدوار ومراحل تاريخية ، وقد تميز كل دور بخصائص مميزة ، ولمع فيها العديد من الشخصيات التي كان لها تأثير كبير في بيئتها المعاصرة وفي العصور اللاحقة ، والواقع أن التجارب الروحية والنفسية التي مر بها المتصوفة المسلمون لا تقتصر فيها على كونها تجارب شخصية أو فردية وإنما تمتد بعضها ليصبح تجارب إنسانية بالغة العمق. وهذه المراحل هي: (شوقي، ٢٠٠١ : ١٠٧)

المرحلة الأولى : مرحلة (القرنين الأول والثاني الهجريين) مرحلة الزهد : نشأت تحت تأثير عوامل إسلامية صرفة وكان سبب نشأته سببان :

السبب الأول: تعاليم الإسلام ، التي منبعها القرآن والسنة والتي تدعو إلى الزهد والتبذل والعبادة وقيام الليل.

والسبب الثاني: اتساع الرقعة الإسلامية ، وما نتج عنها من حياة البذخ والترف التي صاحبت الفتوحات الإسلامية ، وإطلاعهم على حضارات وثقافات الشعوب الأخرى ، فأثار ذلك حفيظة مجموعة من المسلمين فاعتزلوا حياة البذخ والترف ، والحياة السياسية وإراقة الدماء كمقتل عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ، ومقتل علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، ومقتل عدد من الصحابة ، جعل بعضاً من المسلمين يعتزلون الحياة تعففاً منهم ، والاتجاه إلى القرآن والسنة ، فظهر الزهد ، ويعد الحسن البصري (حامد طاهر ، ١٩٩١ : ٢٧) مثلاً لهذه الحركة.

المرحلة الثانية: (مرحلة القرنين الثالث والرابع الهجريين) : تطور الزهد لم يعد فردياً بل أصبح حركة منتظمة يطلق عليها التصوف، وأخذ الصوفية يتحدثون في مواضيع جديدة كالسلوك والمقامات والأحوال والمعرفة ومناهجها والتوحيد والفناء، وهناك نوعان من التصوف في هذين القرنين أحدهما: سني يتقيد بالكتاب والسنة ويعتمد عليهما باعتبارهما مصدرين من

مصادر التصوف، ويتعد هذا النوع من التصوف عن الشطحات الصوفية والكرامات الخارقة ، وهذا هو التصوف المقبول ، والثاني فلسفي يمتزج فيه الذوق بالنظر العقلي، ينطلق هذا النوع من الفناء ، إلى مرحلة الاتحاد والحلول ، وهذا النوع مرفوض" وفي هذا القرن وما بعده تولدت بعض الأبحاث الصوفية ، وظهرت تعاليم القوم ونظرياتهم التي تواضعوا عليها ، وأخذت هذا الأبحاث تنمو وتتزايد كلما تقادم العهد عليها ، وبمقدار ما اقتبسها القوم من المحيط العلمي الذي يعيشون فيه تطورت هذه الأبحاث والنظريات ، ولقد استفاد المتصوفة من الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء ، ما كان له الأثر الأكبر في هذا التطور الصوفي ، غير أنهم أخذوا من الفلسفة بحظ وافر، بل كونوا فلسفة خاصة بهم ، حتى أصبحنا نرى بينهم رجالاً أشبه بالفلاسفة منهم بالمتصوفة ، وأصبحنا نرى بعضهم يدين بمسائل فلسفية لا تتفق ومبادئ الشريعة، مما أثار عليهم جمهور أهل السنة ، وجعلهم يحاربون التصوف الفلسفي ، ويؤيدون التصوف الذي يدور حول الزهد ، والتقشف وتربية النفس وإصلاحها " (البصري، ١١٠ هـ : ٣١)

لقد تعرض بعض المتصوفة مثل (الحلاج) (ت ٣٠٩ هـ) إلى الاضطهاد من قبل الفقهاء والمتشددين "وظهر الخلاف على حقيقته حوالي منتصف القرن (٣ هـ / ٩ م) بين فقهاء البصرة والكوفة ومتصوفتهما ، تم تلتها سلسلة من الاضطهادات في مصر والشام والعراق انتهت بمأساة الحلاج بتعذيبه ومقتله." (الذهبي، ٢٠٠٠ : ٢٥١)

وفي القرن الخامس الهجري : استمر التصوف السني المعتدل ويمثله أبو حامد الغزالي ، حيث حاول إرجاع التصوف إلى مسلكه الصحيح وإلى مصدره الإسلامي السني المعتدل " وإذا كانت محاولة القشيري ترمي إلى إعادة العقيدة الإسلامية إلى التصوف، فإن محاولة الغزالي ترمي إلى إدخال التصوف في طلب الإسلام السني ، وقد أصبح كتابه (إحياء علوم الدين) مصدراً للتصوف السني من غير جدال" فتصوف الغزالي مثال للتصوف الإسلامي المعتدل المستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية ، ومن أبرز كتبه في التصوف إحياء علوم الدين والمنقذ من الضلال.(الحلاج، ص ٩٢٢)

المرحلة الثالثة : مرحلة (القرنين السادس والسابع الهجريين) : تتميز بظهور التصوف الفلسفي ، نظراً لتأثره بالمؤثرات الخارجية كالفلسفة اليونانية، والفارسية والهندية والمسيحية واليهودية ، ويبدو تأثير الفلسفة اليونانية على التصوف الإسلامي من خلال الأفلاطونية المحدثة وتأثيره على المذهب الإشراقي، ويعد السهروردي (ت ٦٣٠ هـ) مثلاً لهذا المذهب " على الرغم من اختلاف الأسلوب والتعبيرات، يلاحظ الباحث أن مذهب السهروردي لا يخرج عن كونه نسيجاً محكماً على منوال مدرسة ابن سينا الإشراقية المتأثرة بالأفلاطونية المحدثة(الطيب، ٢٠٠٧ : ٣٥)

وتأثيرها أيضاً يظهر واضحاً على محي الدين ابن عربي(ت ٦٣٨ هـ) القائل بوحدة الوجود ، وابن سبعين(ت ٦٦٩ هـ) ونظريته في الوحدة المطلقة وغيرها " وذلك كوسيلة حاولوا بها الجمع والتوفيق بين نصوص الشرع المنزل والأنظار الفلسفية استمدوها من دوائر الفكر الأجنبي ، ذلك إن التفسير المألوف المعتمد على المأثور مما يتسع المجال فيه" (بمحي الدين بن العربي، ١٢٤٠)

بعد هذه المرحلة أصيب التصوف بنوع من التدهور، فلم يُصَفَ جديد بعد القرن السابع الهجري ، إلا مجرد شروح وترديد لمن سبقهم من المتصوفة الأقدمين ، وربما يرجع السبب في ذلك لما تعرض له الصوفية من اضطهاد .

ثانياً: أثر التصوف على المجتمع العراقي في العصر العباسي

كان المجتمع العباسي ، في عصره الاول ، وكذا الثاني ، متأثراً بحركات الشعبية والزندقة والمجون ، ومن جهة اخرى ، كان هناك المتعبدون والنسّاك ، الذين احيوا حياة الزهد وانصرفوا عن كل ملذات الحياة ونعيمها ، يذكر الدكتور شوقي ضيف أن بدايات بزوغ التصوف في العصر العباسي الاول ، وانتشاره في العصر الثاني ، فيقول : " فأخذت تتبثق بينهم مقدمات نزعة التصوف متمثلة في شيوخ كثيرين ، وفي مقدمتهم ابراهيم ابن ادهم البلخي المتوفى سنة ١٦٠ هـ ،

ورابعة العدوية المتوفاة بالبصرة سنة ١٨٠ هـ ، وشقيق البلخي تلميذ ابن ادهم المتوفى سنة ١٩٤ هـ ، ويقال اول من تكلم في التصوف وعلوم الاحوال .. وينبغي أن لا نبالغ فنزعم أن التصوف نضج في هذا العصر أما في هذا العصر فقد تقتحت تباشيره الاولى واثره في المجتمع " (دم، ٥٢٤ : ٣٥) .

أما في العصر العباسي الثاني ، فقد كان التصوف قد عرف ، وانتشر بين اواسط المجتمع وتأثر به ، وربط ربطاً وثيقاً بالشريعة الاسلامية ، بعد أن شك في اصله وانبثاقه المستشرقون ، يقول الدكتور شوقي ضيف : "وأذن فالتصوف اسلامي في جوهره وفي نشأته ونموه وتطوره ، وهو الرأي العلمي الصحيح (ضيف ، ٢٠١٩ : ٨٦) .

ثالثاً: أسباب ظهور التصوف في العراق (العوامل والدوافع)

لوحظ إنه كلما زادت حدة التوتر والتأزم في المجتمعات عموماً والمجتمع الإسلامي خاصة كلما زادت ميول الأفراد نحو التدين، ففي العصر العباسي اتسع نطاق الفساد الإداري والفوضى السياسية والضيق الاقتصادي كل هذا خلف وراءه تضخم حدة القلق النفسي والتحلل الأخلاقي والاضطراب في أفكار ومبادئ ومفاهيم وفلسفات أفراد المجتمع والتي كانت كافية لخلق ردات فعل اجتماعية، ومع إن التصوف في حقيقته ظاهرة اجتماعية بإطار ديني ؛ فهي أيضا ذات صبغة مركبة (فردية وجماعية)، وهنا تكمن الصعوبة في بيان العوامل المختلفة التي أفرزتها وتفسير أسباب ظهورها في المجتمع العراقي كظاهرة استمدت حياتها وقوتها من أفراد جميع الطبقات والفئات ، ولذا فإن هذه التعليقات تبقى فروض تقسر جانباً من الحقيقة وليس الحقيقة كلها .

وفيما يأتي توضيح لدور بعض هذه العوامل والدوافع:

أولاً: العامل السياسي

شهد المجتمع العراقي ثورات عدة على السلطة والحكام ، وكننتيجة حتمية للغليان السياسي مثل التصوف احتجاج على ما أصاب الناس من ظلم ، وما أعتري نفوسهم من كآبة وملل من ضجيج المعارك وقعقعة السلاح وما كان يرافقها من أحداث دموية وفوضى واضطرابات ؛ فكان شيء طبيعي في ظل انعدام الشعور بالأمن والاستقرار أن تعم الشكوى ويضيق الناس ذرعاً بهذا الجو المظلم وهم يرون إن الحكام عاجزين عن إسعاد البشر وإدخال الطمأنينة إلى نفوسهم ؛ وهنا ظهرت الدعوة إلى تجنب هؤلاء الحكام والاتجاه إلى الله ورفض الاستعانة بغيره وصوروا الخير هو في الابتعاد عن الدنيا والتعلق بالآخرة ، وأن ما عند الله من خزائن هي خير من دراهم السلطان (غلاب، ١٩٥٦ : ١١٣)

وفيما يأتي أهم مظاهر الاضطراب السياسي :

١. اختلاف اجتهادات المسلمين على نمط النظام السياسي ، والصراع على تولي الخلافة وما خلفه من حروب أهلية فقد شهدت بغداد في نهاية القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي حرباً أخوية بين الأمين(ت١٩٨هـ) والمأمون(ت٢١٨هـ) جرت في شوارع بغداد واستنزفت الحرث والنسل وخلفت ورائها الخراب على جميع مرافق الحياة وتركت آثارها السيئة على حياة الناس ، ومثلها فعلت الحرب بين المستعين(ت٢٥٢هـ) والمعتز(ت٢٥٥هـ) في منتصف القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي.(٢٩)

٢. كثرت حركات التمرد الشعبية التي كان يستغلها الغوغائيين والخارجيين على السلطة فضلاً عن حركات الغلاة والمتطرفين وكان هؤلاء يتحينون أي اضطراب أو ضعف في الحكومة فيعبثون بالأمن فتزهق بسببهم الأرواح البريئة ؛ وكانت سطوتهم تمتد إلى أهل القرى والأرياف كما على سكان المدن.(ابن سبعين، ١٢٦٩)

٣. الفتن المذهبية وتعسف الخلفاء في فرض إرادتهم وأرائهم الدينية بالقوة والإكراه والاختلاف في تحديد مسؤولية الحروب الأهلية على رجال السلطة أو المشاركة بالحروب فكانت هذه الفتن تشتعل وترتفع درجة حدتها وتشتد فتصيب الناس في

- أرواحهم وأرزاقهم ، كما ضجت حواضر الدويلات المنسلخة من الدولة العباسية بالتيارات السياسية والدينية والفكرية وخبث جذوة الجهاد وأصبح ولاء الجيش لمن يدفع المزيد من الأموال ويمنح الامتيازات .(سيد أحمد ، ٢٠٠٠ : ١٥)
٤. استباحة جند الخليفة للأموال والأموال العامة وتحكمهم بمصائر الخلفاء وإضعاف سلطتهم وما كان من نتيجة ذلك اضطراب الجهاز الإداري فلا رقابة مخلصه ولا حماة يضربون أيدي الظلمة ؛ فكانت الدور تنهب والأموال تصادر والحقوق العامة ضائعة ومصالح الناس متدهورة بفساد الذمم واختفاء الضمائر ، وكانت متاعب الناس تكبر وتزداد بازدياد فقرهم ، وأمورهم تسير من سيء إلى أسوأ وصار الناس يتوقعون الموت والأسر والسجن ونهب الدور ومصادرة الأموال في أي وقت .(الفاخوري ، ١٩٩٣ م : ٣٤٨)
٥. التسلط الأجنبي وما رافقه من إهمال لشؤون البلاد وسوء أحوال العباد فلم تنحصر إساءات كل من البويهيين (٣٢٠-٤٤٧هـ/٩٣٢م - ١٠٥٥م) ومن بعدهم السلاجقة (٤٢٩-٥٥٢هـ/١٠٣٧-١١٥٧م) على الخليفة وحده إنما استهانوا أيضا بأرواح الناس وأموالهم فنهبوا الضياع واقطعوا لقاوتهم وأزداد استبدادهم فنزلوا بدور الناس و شردوهم منها وخرّبوا بيوتهم ليبنوا قصورهم ، وشهدت بغداد في (النصف الأول من القرن السادس الهجري / الثاني الميلادي) حصاراً لأربع مرات بسبب المعارك مع السلاجقة فتزايد القحط وأختل الأمن .(لويس وعبد الرزاق ، ١٩٧٩)

ثانياً :العامل الاجتماعي والاقتصادي

إذا نظرنا إلى سلوكيات أفراد المجتمع العراقي كمرآة عاكسة للطابع العام للبيئة الاجتماعية وأجوائها تكون الضغوطات الاقتصادية وما خلفته وراءها من تفاوت طبقي هي بلا شك عامل مؤدي إلى شيوع الحقد والحسد والخديعة ، وكلما اتسع البون بين الأغنياء وهم القلة وبين الفقراء وهم عامة المجتمع كلما زاد الحيف والجور بامتلاء خزائن طبقة على حساب طبقة يزداد عددها بتدهور المعاش اليومي لها والفقير والحرمان والبؤس الذي طبعها بطابع الذلة والضعف ، ويكون منها قلة نادرة ممن يتمسك بالعزة والإباء والحق والفضيلة ، والأكثر من هذا فقد تصيبهم المجاعات إذا ما غلت الأسعار بشحة المواد بسبب استمرار الفتن والحروب والكوارث الطبيعية المتكررة التي تتلف المحاصيل الشتوية والصيفية. (مبارك ، ٢٠١٢)

لعل من أهم نتائج الفقر الشديد والحاجة والفاقة هو اهتزاز القيم الروحية التي تزلزل الروح المعنوية وتضعفها فتشيع فساد الأخلاق وانعدام الفضائل مما تدفع المتدينين إلى الهروب إلى ميدان التصوف حيث السكون والهدوء والراحة النفسية والطمأنينة (كرفض فردي ذاتي لن يكون بمعزل عن السياق الاجتماعي ،وهو في حقيقته احتجاج سلبي ورفض شعبي ضد الخلل الاجتماعي والظواهر السلبية المنحرفة عن الدين الإسلامي ؛ فكان تعاطف وتضامن الصوفية معهم ضد الظلم والظغيان وسرقة قوت العامة. (الجبوري ، ١٩٩١)

تعتبر الناحية الاقتصادية عامل أساسي من عوامل نشاط وحركة المجتمعات فتأثيرها في حوادث التاريخ فعال ويكاد يكون مباشر في أحيان كثيرة ؛ فهو الحافز الأول للتمرد بعنف وثورية واستخدام القوة من قبل فئات متعددة من أفراد المجتمع العراقي وانضمامهم للثورات والحركات العنيفة ضد الدولة العباسية ، وقد تدهور اقتصادها بسبب السياسة المالية القائمة على الإقطاع الطبقي ونظام اللامركزية الذي أتاح للأموال الاستئثار بمواردها وحرمان بغداد من موارد غزيرة مما أدى إلى أضعاف إمكانياتها الخدمية ، وكانت ثورات هذه الفئات هي محاولات يائسة منها لتغيير وضعها المعاشي البائس ، ومن بين ردود الأفعال الأخرى الاتجاه للصوفية وقطع الطريق وممارسة عمل السلطة في مصادرة أموال الناس ، ومنهم من لم يستطع تحمل قسوة الحياة والصمود بوجه مأسيتها فراح يبحث عن قوت يومه ومسببات وجوده بوضاعة بممارسة الكدية ، وقد انتشرت هذه الفئة بالمجتمع العراقي حتى صار لها شعائرها ومنكلموها وعاداتها وتقاليدها. (فتاح ، ١٩٨٨)

ثالثاً : العوامل الفكرية والثقافية

من فضائل دراسة الناحية الفكرية والثقافية للمجتمع العراقي في العصر العباسي إنها وفرت مجالاً واسعاً لفهم طبيعة وروحية العصر (عاداته وتقاليده وظواهره المتنوعة) ، ومع ذلك فإن تتبع التأثير الذي تركته الثقافة الصوفية في أفراد المجتمع ليس بالأمر الهين ، إلا إنه يمكن القول إنه سواء كان انتشار التصوف هو السبب في زيادة عدد الكتب المصنفة فيه أم العكس ؛ ففي كلا الحالتين فالنتيجة واحدة وهي معالجة الكثير من المشاكل الاجتماعية والدينية والفكرية بطريقة روحانية ؛ والهدف هو توجيه القارئ إلى المذهب الأقوم بنظرهم ومحاولة رسم صورة مثالية متسامية للحياة العامة من وجهة نظرهم ، وسواء قصدوا أم لم يقصدوا فإن تراثهم الثقافي حوى الكثير من عناصر التوجيه الاجتماعي المتمثلة بالمسائل الفقهية والتعاليم الدينية والمواعظ فضلاً عن الأشعار المؤثرة التي لا يستغنون عنها. (لويس وعبد الرزاق، ١٩٧٩) كان ابتعاد الكثير من رجالات الصوفية عن الخوض في الصراعات المذهبية والسياسية سبباً مهماً في انتشار تعاليمهم وأفكارهم بين فئات المجتمع عامة حتى ظهرت صبغة التصوف في ألوان عدة من النشاط الإنساني ودفعت الكثير من المفكرين والعلماء والفلاسفة والشعراء وبكل موضوعية وبعيدا عن التعصب إلى أن يعيدوا النظر بمذاهبهم في محاولة لإنقاذ أنفسهم من الحيرة والشك والبحث عن الفرقة الناجية والنزوع إلى التصوف في أخريات حياتهم ، فمثلاً عن التشتت والأهواء الذي ساد البيئة الدينية يقول الحارث المحاسبي (إن الرجل ليسلب إيمانه وهو لا يشعر، وإن الرجل ليخرج من بيته ومع دينه فيرجع وما معه من دينه شيء...). ومن هنا يحدد المحاسبي موقفه من كل ما حوله بقوله: (إنني تدبرت أحوالنا في دهرنا هذا فأطلت فيه التفكير فرأيت زماناً مستصعباً قد تبدلت فيه شرائع الإيمان... وتغيرت فيه معالم الدين ... وذهب الحق وباد أهله وعلا الباطل وكثر أتباعه ، ورأيت فتناً متراكمة يحار فيها اللبيب ... فالضمانر في دهرنا بخلاف أحوال السلف وضمانرهم ...). (زكي ، ٢٠١٢)

من الجدير بالإشارة ان محاولة المحاسبي في عملية الموازنة بين العقل والقلب أو التوافق بين الدنيا والآخرة وبمعنى آخر بين رغبات النفس وحاجاتها وبين متطلبات الشرع في إطار ربط التصوف بالشرعية ، وهنا نتصور إن المحاسبي يكون قد أمّتك حس نقدي ووعي لاتجاهات عصره الفكرية والمذهبية وفهم عميق لخبايا النفس وأحوالها وتنبه إلى تأثيرها في الإبداعات الفكرية للإنسان ، ومن هنا يمكن أن نفسر تشدده في مراقبة نفسه ومحاسبتها مما كشفت واقعية مبادئه الأخلاقية ، وقد حسم أمره بالإقرار بأن الفرقة الناجية هم ، فهم برأيه: (أئمة الهدى... يرضون بالصبر على البأساء والضراء والرضا بالقضاء والصبر النعماء فقهاء في دين الله ورعين عن الأهواء ... مبغضين للجدال والمرء ... متورعين عن الاغتياب والظلم مخالفين لأهوائهم محاسبين لأنفسهم ورعين في مطاعهم وملابسهم وجميع أحوالهم ... علماً بأمر الآخرة وأقوال القيامة ... وذلك أورثهم الحزن الدائم والهم المقيم فشغلوا عن سر الدنيا ونعيمها). (النشار، ١٩٨٧ ص٥٨)، وقد يكون الغزالي تأثر بأفكار المحاسبي وذلك ما نلاحظه في قوله: ((ولقد علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء وحكم الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوا بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً. (الغزالي، ١١١١م)

لا نستبعد أن يكون من غايات المتصوفة في تصنيفاتهم ومؤلفاتهم التركيز على فئات العامة التي كانت قاصرة عن فهم ما كان يجري حولها من صراع فقهي أو جدال فلسفي أو فقهي بين الفقهاء وأصحاب الملل والمذاهب المختلفة ، والتي من الممكن أن تكون قد لاحظت إن بعض هذه الصراعات تخدم مصالح أخرى بعيدة عن التدين مثل الظفر بمناصب الدولة ، ومع أتصاف الكثير من شيوخ الصوفية بالخشوع والتعبد وإخلاصهم في تعبدهم في السر والعلانية نجد العامة يسعون إليهم ويتبركون بهم ويتبعون أقوالهم وطرقهم ولعلمهم كانوا يبحثون عن فهم شعبي للدين. (شربتية، ١٩٥١ ص٣٦)

من المتوقع أن يؤثر التراث التصوفي الوجداني والروحاني على طبقة المثقفين نذكر من ذلك مثال مع إنه من فترة متأخرة المؤرخ العراقي البغدادي الكبير أبن الساعي (ت ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م) فقد تصوف سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١م في بغداد وعرف عنه في سيرته إنه كان ((دمث الأخلاق محبوباً مجاملاً جميل السيرة محترماً بين الخاص والعام مكرماً عند أرباب الدولة العباسية)) ، وكان متولي خزن الكتب في المدرسة النظامية والمستنصرية وهما من ((أعظم خزائن الكتب في عصره فأطلع على أمهات الكتب المخزونة وأتصل بالمتبردين على المركزين العلمين العظيمين)) ، ومهد له ((الاختلاط بأعيان الدولة وأربابها سبيل الاطلاع على مكونات الدواوين الرسمية المخزونة التي يصعب على غيره من المؤرخين الوصول إليها)) وكان ((معظماً عند الأكابر والأعيان كثير التردد إليهم ...)) .(عباد، ١٩٧٠ص ٨٧)

رابعاً : الدوافع الدينية والنفسية

إن النفس أخطر ما في الإنسان فهي المصدر الأساسي للسلوك الإنساني وهي في غاية الدقة والتعقيد ، وليس القلوب من الهموم والاضطرابات ولأجل ذلك كان الناس يلجئون إلى مصاحبة مشايخ الصوفية وحضور مجالسهم .

عندما يكون الإنسان في حالة ضعف نفسي أو عقلي أو كليهما يعيش أزمة نفسية ترتسم أعراضها في الخوف والقلق والحزن وغيرها وقد يهتدي المرء إلى العلاج وقد لا يهتدي وعندها إما أن ينحرف أو يظل يعيش في عذابات مريرة ، وتأتي العبادة في مقدمة هذه العلاجات بما تقدمه للنفس من وسائل الوقاية للتخفيف من مظاهر الضعف والخوف والقلق ، ومع ذلك فقد لا تكون العبادة هي السبب في المبالغة بالزهد الموصل لنزعة التصوف فأسباب ذلك تختلف من فرد إلى آخر تبعاً لتنوع إحساساتهم من قلق أو رعب أو تدمير أو سخط أو ندم أو فشل .(سيد أحمد، ٢٠٠٠: ١٥)

بسبب ما يحمله التصوف من نزعات إنسانية ممزوجة بالتعاليم الدينية بتذوق روحي أصبح من الطبيعي أن نجد المنتمين للتصوف هم من بيئات مختلفة من كافة طبقات المجتمع ؛ فمن بين الأسباب الإنسانية النفسية للتصوف هو فشل بعضهم في الحصول على ما يطمح له في الحياة وهذا قد يسلمه للزهد في هذه الحياة وهذا الأمر قد يسلمه إلى التصوف كمنهاج في الحياة ليقنع نفسه بأن نعيم المال زائل فإذا كان قد حرم الدنيا فليطلب الآخرة. وقد يكون سبب تصوف البعض الآخر كرد فعل للمعاصي أو المظالم التي ارتكبتها وإحساسه بوخز الضمير فيثور على نفسه وتكون التوبة له خلاصاً من الشعور بالذنب ، أو صدمة تصيب أحدهم فتشعره بالكآبة والسوداوية فيحتقر مظاهر الترف والبلذخ والإسراف ، ويرى بالتصوف متنفساً لمشاعر الحزن المكبوتة عنده.(شرف، ١٩٧٦ص ٤٤)

ممكن أن يصبغ كل صوفي من المتصوفة تصوفه بصبغه ذاتية خاصة تعكس همومه ومشاعر وظروف بيئته وحتى طريقته في العيش وأسلوبه في ممارسة حياته وفلسفته فيها وأخيراً فهمه للدين ومقاصده ، ولا يختلف بهذا متصوفة العراق الذين عاشوا خصوصية ظروف هذا البلد في القرنين الثاني والثالث الهجريين عند نشأة وظهور التصوف ؛ فتعقد الحياة اليومية وزيادة متطلباتها مع توفر الرفاهية المرافقة بحاشية دار الخلافة وطبقة الأثرياء أضعف الضمائر والوازع الديني لدى الكثيرين وأدى إلى انقسام المسلمين إلى فئات؛ ففئة تحاول التوفيق بين الدين والدنيا بغية التمتع بمباهج الحياة وهذا يتطلب منهم أرواحاً أصحاب السلطة والمال والسعي إليهم على حساب التمسك بالتعاليم الدينية والإيحاء في الوقت ذاته بأن الدين يسر وأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها مما أدى إلى ضعف الرقيب الديني عندهم ومن ثم فقدانه وانحراف القيم عند الكثيرين منهم ، وفئة أخرى ظلت متمسكة بالدين والتقوى وأتباع تعاليم الإسلام وأحكام الشريعة على إن منهم من سار في طريق المبالغة بالانصراف إلى الدين والإعراض عن كل ما يتصل بهذه الدنيا والاكتفاء بما يسد الرمق من الطعام وما يستر الجسم من اللباس وقد مالوا إلى العزلة والابتعاد عن الناس فغرقوا بالزهد ومنه انتقلوا إلى التصوف ، وانقطعوا إلى

عبادة الله متفرغين لها يعملون لسد رمقهم بجهدهم ولم يقبلوا بالإحسان ، ومنهم من قبلها واكتفى بالدنيا منها.(فتاح ، ١٩٨٨)

لقد ظهر الدافع النفسي والديني واضحاً في تصوف أفراد من الطبقة الأرستقراطية (أميرات وأمراء ورجال دولة ومتقنين وأغنياء) فضلاً عن فقراء الطبقة العامة وحتى من لصوصها ؛ فالصوفي الكبير الفضيل بن عياض قضى زمناً من شبابه ضائعاً مشرداً فاتكاً يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس ينشر الخوف بكل بقعة وردت فيها خطواته يربع الحواضر ويرهب البوادي وقد ملأ العراق خوفاً ورعباً فطارده خيول الخلافة العباسية الغاضبة وغالت لرأسه ثمناً وترصدته شرطتها وقعدت له سيوفها بكل مرصد ، إلا إنه أعجز مطارديه ونجا من كل شبك نصب له ولكنه في النهاية تاب وتصوف ، أما سبب توبته فكانت لكلمة عابرة سمعها فجأة في جوف الليل وهو يتسور أحد الجدران إذ تلا تالياً قوله تعالى (عز وجل) : ((ألم يأن للذيين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله)) (الحديد، ١٦). (أبو زهره، أبو حنيفة، ١٩٣٨ ص٩٦)

أما الشبلي(ت٣٣٤هـ) وهو من شيوخ المتصوفة في العراق فهو خير مثال على من ترك الجاه زاهداً بأعلى مناصب الدولة وهو كان حاجب الخليفة (الموفق بالله العباسي) (ت ٢٧٨هـ) والذي دامت فترة حكمه (احدى وعشرون عاماً) سالماً طريق الزهد والفقر والتصوف وهذا صاحبه يحاوره : ((إنك في الذروة العليا من قومك جاهاً ومكانة وحسباً ولقد حباك حظ ما ظفر به سواك ؛ فأنت حاجب أمير المؤمنين الخليفة الموفق وهي مكانة مرموقة لا تعلوها مكانة في الدولة وأبوك حاجب الحجاب وحامل الأختام وأسرتهك إليها قيادة الخيل وألوية الحرب وأنت مع هذا وذاك في رونق شبابك وزهرة عمرك وفجر آمالك فكيف سعى هذا الأمر إلى قلبك ؟ وكيف انبثقت في دنياك تلك الخيالات التي صرفتك عن أملك ومجدك ! وأني لأخشى إذا طال أمرك أن يقصيك الخليفة عن عملك)) ، على إن الشبلي لم ينفعه هذا النصح لأنه كان قد هجر دنيا الجاه والمال بلا عودة.(سرور ، ١٩٥٦ ص٩٦) .

نتائج البحث :

من خلال العرض السابق للتصوف الإسلامي في العصر العباسي وتأثيره على المجتمع العراقي ومفهومه ونشأته ومرآحه تطوره واسبابه ، توصل الباحث إلى النتائج التالية:

١. يمثل التصوف جانباً مهماً في تاريخ الفكر الإسلامي، فهو جانب بارز في الحضارة الإسلامية علي اختلاف عصورها.
٢. اختلاف الباحثين في مفهوم التصوف لغة واصطلاحاً ، وهذا راجع إلي غموض هذا المفهوم.
٣. المجتمع العراقي كان قد تأثر بالتصوف منذ بواكير العصر العباسي الاول.
٤. تأثير التصوف على المجتمع العراقي في العصر العباسي بشكل مباشر او غير مباشر .
٥. التصوف لفظ مستحدث، ولم يكن موجوداً في عهد الرسول ولا الصحابة، فكان يطلق لفظ زاهد وعابد ثم ظهر لفظ صوفي.
٦. التصوف هو تهذيب للنفس وتطهير القلب من الرذائل والخطايا ، وذلك عن طريق العزلة والخلوة ، والابتعاد عن البشر ، ومجاهدة النفس للحد من الشهوات ، فهو يرتقي بالإنسان إلى تهذيب سلوكه ، عن طريق السمو عن الملذات الدنيوية والشهوات ، لفوز برضا الله والفوز بسعادة الدارين .
٧. التصوف عبارة عن عبادة وسلوك ، وتمسك بكتاب الله وسنة نبيه منهجاً وسلوكاً ، فهماً وعملاً ، وبذلك نصل إلي نور القلب ، عن طريق التمسك بالكتاب والسنة ، وهذا النور هو الذي ينير القلب ، ويبعده عن الفواحش ، وكل ما يخالف أوامر الله وتوثيق صلته به.
٨. انحراف التصوف عن مساره الإسلامي عندما اختلط بفلسفات وديانات أخرى.

المصادر

القرآن الكريم

١. الطوسي:اللمع، حققه عبد الحلیم محمود وطه عبد الباقي سرور ، دار الكتب الحديثة بمصر مكتبة المثني بغداد ، د.ط ، ١٩٦٠ م، ص ٤١
٢. القشيري :الرسالة القشيرية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ٢٠٠٦، ص ١٢٧.
٣. الكلاباذي : التعرف لمذهب أهل التصوف ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ، ١٩٨٠ ، ص ٢٨، القاهرة ، مصر.
٤. المصدر السابق ، ص ٢٨
٥. الفيروزآبادي ، مجد الدين ابو الطاهر محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط ، تحقيق مكتب التراث ، ط ٨ ، ٢٠٠٥ م ، ص ٨٢٩ ، بيروت.
٦. عرفان عبد الحميد : نشأة الفلسفة الصوفية ، ط ٨ ، ٢٠٠٧: ص ١٠٨ ، نقلا عن نيكلسون مؤلف دائرة معارف القرن العشرين القشيري :
٧. الرسالة القشيرية ، مصدر سابق، سبق ذكره ، ص ١٢٦ .
٨. علي زيعور : النظريات في فلسفة الوجود والعقل والخير ، أسئلة الأسيات و المعرفيات. ١٤٢٦ هـ ، ٢٠٠٦ م ، ص ١١٥ ، والقيميات ، دار النهضة العربية : بيروت لبنان .
٩. الجرجاني : التعريفات ، طبعة حلي ، القاهرة مصر ، د.ط ، ١٩٣٨ م، ص ٤٦ .
١٠. الغزالي : روضة الطالبين وعمدة السالكين ، دار السعادة مصر ، د.ط ، ١٩٢٤ ، ص ١٤٣ .
١١. ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ، تحقيق سليمان دنيا ، القاهرة ، ١٩٤٨ م ص١٦٨ .
١٢. الطوسي :اللمع ، حققه عبد الحلیم محمود وطه عبد الباقي سرور ، دار الكتب الحديثة بمصر مكتبة المثني بغداد ، د.ط ، ١٩٦٠ م ، ص ٤١ .
١٣. الكلاباذي : التعرف لمذهب أهل التصوف ، مصدر سابق ذكره ، ص ٩١ .
١٤. الغراب ، محمود محمود ، شرح كلمات الصوفية ، ط ٢ ، اشراف محمد ماجد الحناوي وآخرون ، مطبعة النصر ، ١٤١٩ هـ ، ١٩٩٣ م، ص ٣٦١ .
١٥. الطوسي : اللمع ، مصدر سابق ذكره ص ٤ .
١٦. الرندي الشيخ ابن عابد، الرسائل الصغرى ، نشر الأب بولس نوياليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت لبنان ، د.ط ، ١٩٣٩ م ، الرسالة السادسة عشر، ص ١١٣ .
١٧. السهروردي: عوارف المعارف ، دار الكتاب العربي : بيروت لبنان ، د.ط ، ١٩٨٠ م، ص ٥٤ .
١٨. جياذ، عبد الرضا حسن، العباسيون في عصرهم الأول، النجف دار المارد ، ٢٠١٠ م، ١٣٩- ص ١٣٦ .
١٩. متر ادم ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ١٩٤٠ ص ٣٦ ، مكتبة لجنة التأليف والترجمة والنشر، بيروت.
٢٠. الجاحظ، أبو عمرو،(ت ٢٥٥ هـ)،الرسائل، ص ١١٠ . ابن المرتضى ،محمد يحيى، ت ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م، المنية والامل ،حيدر اباد ، ص ٤٤
٢١. ادم، معتز ، حضارة الشعوب الإسلامية، ص ٣٥ ، ٥٢٤ / ٢٤ .
٢٢. شوقي ضيف، العصر العباسي الاول ، ط ٨ ، دار المعارف، القاهرة، ٢٠١٩ ، ص ٨٦ .
٢٣. ضيف شوقي، العصر العباسي الثاني، ط ٢ ، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠١، ص ١٠٧ .
٢٤. حامد طاهر : الفلسفة الإسلامية مدخل وقضايا ، دار الثقافة العربية : القاهرة ، ١٩٩١ م ، ص ٢٧ .
٢٥. الحسن بن يسار البصري ، تابعي كان إمام أهل البصرة _ ١١٠ هـ / ٦٤٢ _ ٣١ ، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك ، ولد بالمدينة وشب في كنف علي بن أبي طالب وتوفى بالبصرة .
٢٦. محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ، مكتبة وهبة : القاهرة ، ط ٧ ، ٢٠٠٠، ص ٢٥١ .
٢٧. الحسين بن منصور الحلاج ، فيلسوف أصله فارسي نشأ بتستر وانتقل إلى البصرة ودخل بغداد ، وعاد إلى تستر ، و ادعى حلول الإلهية فيه ، وكثرت الوشائيات به إلى المقتدر العباسي فأمر بالقبض عليه فسنج وعذب وقتل توفى (٣٠٩ هـ _ ٩٢٢ م).
٢٨. محمد الطيب : إسلام المتصوفة ، رابطة العقليين العرب ، دار الطلائع : بيروت : لبنان ، ط ١ ، ٢٠٠٧ ، ص ٣٥ .
٢٩. حنا الفاخوري. خليل الجر : تاريخ الفلسفة العربية ، دار الجيل: بيروت لبنان ، ط ٣ ، ١٩٩٣ م، ص ٣٤٨ .
٣٠. هو أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك السهروردي ويلقب بشهاب الدين ، ولد في سهرورد الواقعة شمال غرب إيران ،قتل بأمر من صلاح الدين بعض أن نسب البعض إليه فساد المعتقد في حلب ٥٨٦ هـ ، من كتبه حكمة الإشراف والمشارع والمطارحات وهياكل النور .
٣١. محمد غلاب :التصوف المقارن ، مكتبة نهضة مصر :القاهرة ، ١٩٥٦، ص ١١٣ .

٣٢. محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائفي الأندلسي الشهير بمحي الدين بن عربي ، القائل بوحدة الوجود، لقبه أتباعه بالشيخ الأكبر ولد عام ٥٥٨ هـ _ ١١٦٤ م وتوفي ٦٣٨ هـ _ ١٢٤٠ م.
٣٣. عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين الأشبيلي الشهير ابن سبعين، (٦١٤ هـ - ٦٦٩ هـ / ١٢١٧ م - ١٢٦٩ م) أحد الفلاسفة المتصوفة القائلين بوحدة الوجود ، أشتهر برسائله المسائل الصقلية .
٣٤. الجبوري ، نظله أحمد نائل : الخصائص العامة للتجربة الصوفية في الإسلام ، رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة لجامعة بغداد ، كلية الآداب ، قسم الفلسفة ، ١٩٩١ .
٣٥. فتاح ، عرفان عبد الحميد : المدرسة العراقية ، علم الكلام والفلسفة والتصوف ، مجلة العراق في موكب الحضارة ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، العراق ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.
٣٦. ماسنيون ، لويس وعبد الرزاق: الإسلام والتصوف ، دائرة المعارف الإسلامية ، القاهرة ، بلا طبعة ، ١٩٧٩ م.
٣٧. زكي ، مبارك : الأخلاق عند الغزالي ، كلمات عربية ، ٢٠١٢ ، مصر ، القاهرة.
٣٨. النشار ، علي سامي : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، ج.م.ع ، ط٧ ، ١٩٧٨ م .
٣٩. نيكلسون رينولد . أ : في التصوف الإسلامي وتاريخه ، ترجمة أبو العلا عفيفي مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ، بلا طبعة ، ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م .
٤٠. أبو حامد محمد الغزالي الطوسي الشافعي الأشعري (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ / ١٠٥٨ - ١١١١ م) احد اعلام عصره وأحد أشهر علماء المسلمين في القرن الخامس الهجري ، الملقب بحجة الإسلام ، له من الكتب إحياء علوم الدين ، المنقذ من الضلال الاقتصاد في الاعتقاد ، تهافت الفلاسفة.
٤١. الصوفية في الإسلام ، ترجمة نور الدين شريتيه ، مكتبة الخانجي ، مصر ، بلا طبعة ١٩٥١ م .
٤٢. عياد ، أحمد توفيق : التصوف الإسلامي (تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره) ، المطبعة الفنية الحديثة القاهرة ، مصر ، بلا طبعة ، ١٩٧٠ م .
٤٣. سيد أحمد محمد عبدالفتاح: التصوف بين الغزالي وابن تيمية ، دار الوفاة : المنصورة ، ٢٠٠٠ ، ص ١٥ .
٤٤. الشرباصي ، أحمد : الغزالي والتصوف الإسلامي ، مطابع مؤسسة دار الهلال ، مصر ، بلا طبعة ، بلا تاريخ.
٤٥. شرف ، محمد جلال : التصوف في الإسلام ، دار الجامعات المصرية ، الإسكندرية ، بلا طبعة ، ١٩٧٦ م .
٤٦. فتاح ، عرفان عبد الحميد : المدرسة العراقية ، علم الكلام والفلسفة والتصوف ، مجلة العراق في موكب الحضارة ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، العراق ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.
٤٧. أبو زهره ، أبو حنيفة ، ١٩٣٨ ، فوزي ، فاروق عمر ، العباسيون الأوائل و ١ / ٢٢٥ / ٢٥ فوزي ، العباسيون الأوائل ، ١. دار الارشاد للنشر والتوزيع ، بيروت.
٤٨. سرور ، طه عبد الباقي: من أعلام التصوف الإسلامي ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٦ .